رؤى

ما هي حقيقة وسائل الإعلام؟ وأية حقيقة يصل إليها الباحث؟*

باتريك شارودو
تقديم وترجمة: محمد نبيل

تقديم

هذه المقالة عبارة عن رد للباحث الفرنسي باتريك شارودو،[1] على جملة من آراء وتساؤلات الباحث دانيال دايان،[2] والمتعلقة بطريقة معالجة الإعلام للصراع الإسرائيلي الفلسطيني. كما يحاول شارودو أن يتجاوز سؤال إشكالية العمل الصحافي أثناء الحروب والنزاعات، ليوجه النقد لكل من وسائل الإعلام والبحث العلمي، عبر طرحه لسؤال أساسي: أية حقيقة تقدمها وسائل الإعلام للجماهير، وأية حقيقة يصل إليها الباحث، وما هو الموقف الذي يتخذه أساساً في ممارسته العلمية؟

شارودو يحاول إجراء مقارنة بين طريقة معالجة الإعلام للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وبين تلك التي تعامل بها مع الصراع في البوسنة، باحثاً عن خصائص كل واحد منهما، ومحاولاً التأمل في أخلاقيات كل من مجالي الصحافة والبحث العلمي.

«أقل ما يمكن أن نقوله في حق دانيال دايان، هو أنه باحث يدفعنا إلى التفكير. لا يكتفي أبداً بتقديم نتائج أبحاثه دون أن يحولها إلى إشكاليات، ويؤولها، منطلقاً من تساؤلات جديدة، محكومة بأفق سؤال الحقيقة. فأية حقيقة تتجلى في اختيار مواضيع بحثنا العلمي؟ وما هي الحقيقة التي تمثلها أدوات التحليل والتأويل؟ وبالتالي ما هو موقف الباحث من قضايا أبحاثه؟ هذه أسئلة عميقة، ومجال مناقشتها واسع، كما أنها تشكل مكاناً لالتقاء وجهات النظر المختلفة، التي يُدافع عنها أصحابها بضراوة. إنها تساؤلات مزعجة، وتتعلق بأسباب وجود العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ألتمس بالرد على كلام دانيال دايان في حواره مع الباحثين بياتريس فلوري وجاك فالتر»[3]، الذي حمل العنوان الآتي: «من أجل نقد لوسائل الإعلام». وأقبل بما أتوقع من صعوبة في هذه المهمة، لأنه في الحقيقة لا يكون النقاش مفيداً، إلا عند حضور صوتين/ رأيين يتناوبان على الكلام، رغبة في ضبط نقاط النقاش تدريجياً، والتنويع من أنماط التفكير. ولن أركز اهتمامي على نقد دايان، بقدر ما سأقدم رداً، ويعني ذلك، أنني سأترك الحرية لتأملاتي التي أثارها في ذهني دانيال دايان.

سياق تاريخي

في البداية، يبدو أنه من المناسب كضرورة أولية، وصف الخلفية التي ينبثق عنها السؤال حول معالجة وسائل الإعلام للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، بغية الوصول إلى تفكير شمولي بخصوص هذا الموضوع. وبالعودة إلى تاريخ فرنسا السوسيوسياسي، لا يمكن لنا أن ننفي أن نجد معاً، كلاً من ظاهرة مناهضة السامية وهي خفية وتظهر من جديد وبانتظام بسبب الأزمات الاجتماعية، وظاهرة مناهضة كل ما هو عربي (لا أقول هنا معاداة ما هو إسلامي)، التي هي أكثر خفاء من سابقتها، وتظهر تحت ضغط الأزمات الاقتصادية. وفي هذا السياق، فالدوافع ونتائج كل واحد منهما، (معاداة العرب ومعاداة السامية) مختلفة تماماً، مع أن الأحكام الصادرة عن الفرنسيين حول حالتي العداء، تتميز بالإنكار كأن نسمع: «أنا لست عنصرياً، أنا لست ضد اليهود، أنا لست ضد العرب». وغالباً ما نسمع في أفضل الحالات، وفي الوقت نفسه: «آه هؤلاء اليهود، آه هؤلاء العرب»... الخ.

معاداة السامية في فرنسا (وليس فقط في فرنسا)، هي عبارة عن حكاية قديمة مرتبطة على الأقل، بعهد المسيح الذي بزغ اليوم، مع تصاعد الإشاعات حول مؤامرات السحرة الملتصقة باليهود (دون نسيان طبعا العرب والبروتستانت وغيرهم...)، التي ستنبعث من جديد، وبانتظام في مراحل تاريخية مختلفة (دون نسيان قضية

دريفوس)، وتعد راسخة في الوعي واللاوعي الجماعي الفرنسي (من الصعب إصدار الحكم على هذا الأمر). لكن في اللحظة نفسها، وبشكل مفارق، تتميز مناهضة السامية بنوع من المنافسة بل الغيرة ، ونعني بذلك، النقد المزدوج الذي يتجلى في الإعجاب بالمهارة التجارية والآلية عند اليهود، واعتراف بذكائهم عن طريق حضورهم في المجال الفكري والاجتماعي لكبار المفكرين، الذين طبعوا بل وأسسوا النظريات الكبرى، لكن في الوقت نفسه، مثل ما يوجد في هذه القاعدة، هناك هيمنة وحذر وعدم الثقة، بالنظر إلى هؤلاء؛ كبار المفكرين اليهود.

أما معاداة العرب فهي حديثة جداً في المجتمع الفرنسي، إنها أولاً مرتبطة بمرحلة الاستعمار، الذي تميز بعلاقة استعلاء الفرنسي بالمقارنة مع العرب. هذه العلاقة يعبر عنها انطلاقاً من موقف تنازل أو أبوية، حسب الحالات. إن الأمر متعلق أيضاً بفك الارتباط بالمعمر الفرنسي، الذي أدى فقدانه الامتلاك والسلطة على الآخر المسيطر عليه (العربي)، إلى استفزاز للذات (الفرنسية)، وشعور بالغيظ في العلاقة مع الآخر (العربي). في نهاية المطاف، نجد سبب هذا الوضع يعود إلى الهجرة المكثفة الآتية من المغرب العربي؛ بمعنى من مستعمرات قديمة، الشيء الذي أفرز نتيجتين: من ناحية، واقع سوق العمل الفرنسي الذي يعطي الانطباع لدى البعض -ويستثمره البعض الآخر- بأنه هو الذي يسبب ظاهرة العطالة. أما من ناحية أخرى، إقامة مناطق حضرية تضم تجمعات سكانية، تعيش وضعية غير ثابتة، ما يعيق التجاور الهادئ بين تجمعات سكانية، كانت فيما مضى ذات أغلبية عمالية، وهذا ما أدى إلى ارتفاع أعمال العنف، والإحساس بعدم الأمن المبرر تارة، وتارة أخرى يستثمره أولئك الذين لهم مصلحة في تغذية هذه المعاداة ضد ما هو عربي.

هذا الواقع يخلق ستارات من الدخان المانع لرؤية بعض الحقائق. والنتيجة هي أولاً، أن الفرنسيين اليهود مندمجون بشكل كامل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وثانياً، انتشار روح الانتماء إلى التجمعات الإثنية والدينية وغيرها،[4] بشكل أكبر مما يريدنا أن نعتقد فيه صانعو الإشاعات والمؤامرات. أما بالنسبة للجاليات العربية المهاجرة، فهي متنوعة بشكل يتجاوز ما نسمعه عن الموضوع، لأنه في البداية كانت هناك حركة هجرات، تبتعها أجيال مختلفة من أبناء المهاجرين، وعدد كبير منهم أصبحوا فرنسيين أطباء (يتقاضون رواتب هزيلة)، وباحثين ومهندسين في الإعلاميات، ومسؤولين في أقسام المبيعات داخل الشركات، وتجاراً، وطلبة في الجامعات، وبعضهم يعد من الطلبة المتفوقين في فرنسا. هذه الستارات المذكورة تمنع القيام ببعض التمايزات، التي تسمح لنا بتفادي الوقوع في الخلط، المضر بتنظيم الحياة الاجتماعية، كالخلط بين اليهود وإسرائيل من جهة، وبين العرب والمتطرفين الإسلاميين من جهة أخرى.

ليس كل اليهود إسرائيليين، وليس كل العرب إسلاميين، أو إرهابيين. بكل تأكيد، الأشياء ليست بسيطة. فبخصوص الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، لا يمكننا أن ننفي وجود نوع من الوهم الحاضر في سياسة إسرائيل، والأمر نفسه يحرك الساحة الفلسطينية، لكن هناك بالضرورة حاجات سياسية دولية وإعلامية إخبارية، لتفادي هذا الخلط، والقيام بتمايزات تسمح للمواطنين من بلدان أخرى بحساب الأشياء، في إطار الكل المعقد جداً. زد على ذلك، هناك سؤال يطرح في حق المجتمع الفرنسي: هل يتعلق الأمر في هذا المجتمع بمعاداة السامية، أم بمعاداة العرب، أم بكراهية الأجانب؟ هذا المفهوم هو أكثر عمومية، ويطرح ضمنياً، مشكلة الهوية الاجتماعية الفرنسية؟ إنه سؤال عميق لم نصل بعد إلى الإجابة عنه.

لنأتِ إذن إلى السؤالين العميقين اللذين يطرحهما كلام دانيال دايان: هل الإعلام مسؤول عن هذه الستارات التي تصل أحياناً إلى التضليل؟ وهل نتمسك بمسؤولية الصحافي في هذا الأمر؟ أي موقف يجب أن يتبناه الباحث عندما يحلل المواضيع ذات القيمة الأخلاقية؟ وما هي أخلاقياته كباحث؟ هل معالجة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني تتم بطريقة معينة؟

في إطار دراسة أنجزناها في مركز تحليل الخطاب مع زملاء باحثين، قمنا بمقاربة الطريقة التي يعالج من خلالها التلفزيون الفرنسي (القنوات الأولى والثانية والثالثة)، الصراع في يوغوسلافيا سابقاً، أثناء الاشتباك بين الصرب والبوسنيين (شارودو، 2001). أريد أن أضع نتيجة هذه الدراسة أمام ملاحظات أدلى بها دايان بخصوص الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، لأنه لا أنا ولا زملائي، درسنا هذا الصراع بأدواتنا الخاصة في التحليل، ويجب علينا إبداء بعض الملاحظات.

بعد لوك بولتانسكي،[5] لاحظ دانيال دايان بدوره، أنه في «سياق الحرب يستجيب إحساس الإعلام بالرأفة أو التعاطف أو الشفقة، لوضعية ما يعرضه من مشاهد المعاناة المرعبة». دايان طرح سلسلة من التساؤلات: من أين يأتي اختيار عرض مشاهد معاناة ما؟ من هم بالضبط الموتى والمحتضرون الذين يعرض الإعلام صورهم؟

في دراستنا عن الصراع في البوسنة، عاينّا ظاهرة أتذكرها وأنا أستحضر جزءاً من الخلاصة الآتية: كيفما تكون القناة التلفزيونية التي تعلق على حدث ما، فإنها تصف، وتظهر اليومي الدرامي للضحايا، بالتركيز على حالات معاناتهم، واضطراباتهم. سيناريوهات وصف الحياة، تظهر لنا من داخل لقطات مكبرة، وجوه أولئك الذين ما زالوا تحت الصدمة، تُسمعنا صيحات الجرحى، أو حكايات تحكي أجزاءها نحيب من فقد أحد أقربائه. النعوت التي يوظفها الإعلام مؤثرة ومرعبة، أما الصفات التي يستعملها مثل دراما، معاناة، عنف، ألم، فهي كثيرة. ويبدو أن هذا الإلحاح يبين أن وسائل الإعلام، وكأنها تتقاسم معاناة سكان سراييفو نفسها، بل أيضاً تعبر عن سخطها على هذه الحرب العمياء التي يذهب ضحيتها الأبرياء، مثلها مثل أولئك الذين ينتظرون نهاية للحرب (مثال على ذلك تصريح للرئيس الفرنسي الأسبق فرنسوا ميتران: «الطوارئ تمسك بتلابيبنا»).

إن الأمر يتعلق بعرض موضوع مزدوج: أولاً، تكرار في إستراتيجية وسائل الإعلام، وبخاصة التلفزيون. وثانياً، موضوع المعاناة وعلاقتها بالتعاطف. إن إستراتيجية التهويل تتأسس على نقل

الأحداث، عن طريق بنائها في إطار سيناريو ثلاثي، حيث انطلاقاً من تهويل حالة الأزمة (صراع اجتماعي، حرب أهلية أو بين الدول، كارثة طبيعية)، تقدم مصدر الشر في صورة المضطَهِد –حين يكون الضحايا في وضعية المضطَهَد، والمنقذ المحرر يظَهر في صورة «القائد»، الذي في الوقت نفسه، يكون حامياً وسلطوياً، ويعرض في بعض الأحيان، في صورة كيان جماعي (القبعات الزرق التابعة للأمم المتحدة).

وحسب الحالات، وأنواع الأزمات، ولحظات الصراع، تركز وسائل الإعلام أكثر على قطب من أقطاب هذا الثلاثي، في حين أننا نلاحظ في غالب الأحيان، أن هناك تركيزاً على الضحايا. وفي علاقة مضطَهِد/ مضطَهَد، تركز وسائل الإعلام أكثر –أحيانا تعلن ذلك– على المَضطَهَد، وتصف التفاصيل الدقيقة وتعرضها، ومعاناة الضحايا الذين نتأثر بهم، كما نحاول أن نثير التعاطف الجماعي لأولئك الذين يوجدون في وضعية مشاهدي «المأساة «. ونضيف إلى أنه كلما ساهمت حالة الضحايا في الإحساس بالرعب (معتقلون خلف الأسلاك الشائكة التي تذكر بمعسكرات النازية، والنقل المباشر لمشهد قطع رأس الصحافي، ومراسل «وول ستريت جورنال» «دانييل بيرل»)، ازداد عدد الصور الفوتوغرافية والتلفزيونية بشكل كبير.

إذن، انطلاقاً من وجهة النظر هذه، يمكن أن نقول، إن الصور والأوصاف التي تقدمها لنا طريقة معالجة الإعلام للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، لا تتوفر على شيء جديد بالنظر إلى إستراتيجية التهويل، باستثناء التأثير الذي تخلفه هذه الإستراتيجية على المشاهد. ويظل تساؤلنا هو كالآتي: كيف يقوم الإعلام باختيار الطريقة التي سيعرض بها الضحية في إطار إستراتيجية التهويل، وهل يتم ذلك بناء على اختيارات (واعية أو لاواعية)؟

أيديولوجية وسائل الإعلام: عالم من الصراعات والمآسي والمعاناة

خلال دراستنا للصراع في يوغوسلافيا سابقاً، لا حظنا أيضاً طريقة عرض متنوعة لصور للضحايا. ربما أنه عندما تطول مدة الصراع، ويحصل إحساس الجمهور بالإشباع، تتجه وسائل الإعلام إلى تغيير صور الضحايا. (في دراسة لاحقة، سنعرض كيفية معاناة هؤلاء الضحايا، حسب فترات الصراع المختلفة، وهو الذي يسمح لنا بملاحظة مدى وجود، بشكل «أكثر أو أقل»، صور مناسبة للضحايا).

مربية في روضة مدرسة النجاح تقود لعبة مع أطفالها.

بالطبع، يظهر على رأس القائمة المعروضة صور الضحايا الأبرياء -وبخاصة إذا تعلق الأمر بالأطفال- بالتركيز على وضعية براءتهم التي تزيد بالقدر نفسه، وحشية المعتدي المسؤول عن هذا الظلم. ويعبر الذين نجوا من الموت عن معاناتهم -وبخاصة إذا تعلق الأمر بأقاربهم الذين لقوا حتفهم- بالتركيز على شهاداتهم الممزوجة بالألم، بل يعرض الإعلام تقارير مصغرة في شكل سرد لسير الضحايا الذاتية، مثل ما كشف عنه أيضاً دانيال دايان بخصوص حال رام الله، لأن السرد الذاتي يسمح لنا بالغوص في حميمية معاناة أب أو أم (الأم المتألمة)، وهي أمام جثة أو جالسة على قبر ابنها، وأيضاً بدرجة أقل، صور ضحايا الجيش، ما دام أن مهنتهم هي القيام بالحرب. الضحايا المجهولون لا يمكن أن يكونوا موضع اهتمام وسائل الإعلام، إلا إذا تم عرضهم كمجموعات، لذلك، فالأرقام تلعب دوراً في خلق الإحساس بالرعب.

هذا الأمر يفسر الاختلاف بين معالجة التلفزيون، لموت محمد الطفل الصغير، وهو بين يدي أبيه (الكاتب يقصد محمد الدرة)، وتلك الخاصة بجنود الاحتياط الإسرائيليين الذين يقذف بهم من النوافذ، والذين يشير إليهم دايان. في الحالة الأولى، يظهر لنا أن عرض موت طفل مباشرة أمر لا يحتمل، فنموذج البراءة وصفاء الحياة هنا مضاعف، أولاً، هناك معاناة أب نجا من الموت، الذي لا يمكن إلا أن نتعاطف معه، ولو عن بعد (موضوع التعاطف). وثانياً، هناك أيضاً صورة الموت التي تبقى مؤثرة. لكن هذا الوضع يجعلنا نتخذ مسافة أكثر، إذا تعلق الأمر بجنود وجدوا أنفسهم في سياق منطق الحرب.

سأتبنى موقف دايان وأقول، إن سيناريو الضحية يتوفر على حظوظ أكثر للتأثير على المتلقي المشاهد، عندما يتأسس ذلك على السرد الذاتي، «سرد كبير أو صغير أو متوسط الحجم»، مثل ما صنفه الباحث دايان. إنهم يساهمون في صناعة ما أسميه من وجهة نظري بـ«خيال الاستدلال الاجتماعي» (شارودو، 2005، ص: 145).

هذا السرد المتعدد، يشكل قاعدة ولحمة لإستراتيجية تهويل الأوصاف، والتعاليق الإعلامية، وهو في الوقت نفسه تقريباً، يجسد مكاناً للاعتراف الواعي بحس رمزي للمشاهدين والقراء. هنا نجد مثلاً، المعاناة المسيحية للبابا جان بول، وهناك نجد الاحتفال القرباني لقذف الجنود الإسرائيليين، أو قطع رأس الصحافي دانييل بيرل. وهناك أيضاً موت القديسين الأبرياء في مجازر المدنيين، وملحمة الوستيرن الأمريكي (أفلام رعاة البقر)، التي تعرض صورة راعي البقر المنتقم والمكفر عن الشر، مثل ما هو عليه الأمر بعد أحداث الحادي عشر من أيلول 2001 بنيويورك (على سبيل المثال، كتبت عبارة «Wanted» تحت بورتريه صورة بن لادن).

هذا السرد جيد لاسترداد أقوال دايان: «الأدوات المعرفية هي التي تبيح لوسائل الإعلام الإخبارية، كي تشتغل وتنتقي الأحداث وترويها، والخطوط الحمراء هي التي تسمح بجمع عناصر متباينة داخل العالم السردي نفسه». وفي هذه العودة إلى الخيال، نرى ظهور منطق الإغراء الذي يخضع له الخبر في وسائل الإعلام، وهو ما يشكل علة وجوده، فإغراء أكبر عدد ممكن من الجمهور هو الذي يجعل المؤسسة الإعلامية تصمد اقتصادياً. هنا يطرح هم ديمقراطي، هذا الأمر يمثل بدوره سبب حضور الخبر في وسائل الإعلام. لكن كيف للإعلام أن يعمل بطريقة مغايرة، وعملية بيع مواده الإعلامية مفروضة عليه؟ إذا كان من الواجب أن نقبل بضرورة العودة إلى السرد الموجود قبلياً، سنقول مع دايان، إن السؤال يظل هو معرفة أي سرد سيتم توظيفه، لأن هناك سرد له وظيفة درامية مُهَولة، وآخر يمكن أن يكون له وظيفة تفسيرية.

الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، هل تتم معالجته بطريقة حيادية؟

هل هناك من حيادية في طريقة معالجة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وكيف لنا أن نقول بصراحة، إن المعالجة الإعلامية لهذا الصراع موجهة لصالح الفلسطينيين، وضد الإسرائيليين؟ دانيال دايان يؤكد ذلك بناء على دلائل يسميها بـ «التحقق، والكشف، وتصنيف الحركات». أريد أن أتناول هذه الأمور، عن طريق التأمل المنهجي بشكل أعم من تناول دايان لهذه الإشكالية، لأنه لا يبدو لي، أن معالجة هذا السؤال هي قضية بسيطة.

من وجهة نظر التأثير بين الجمهور والإعلام، هناك دراسات عدة في مجال علم النفس الاجتماعي، وفي مجال تحليل الخطاب، تبين أنه لا يمكن لنا ربط علاقة سببية ذات تأثير منظم، بين قصدية الدلالة عند المتكلم (إذا توصلنا إلى معرفة نية المتكلم)، والمعنى الذي يستخلص من عرض الخطاب، وذاك الذي يبنيه المتلقي. دراسة هذه القضية معقدة جداً، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بتواصل، يتم بين كيانات جماعية، ومؤسسات إنتاجية، إضافة إلى حاجات التلقي، والأمر نفسه ينطبق على الخبر في وسائل الإعلام.

في دراستي التحليلية كنت دائماً أدافع عن فرضية علاقة التراسل الممكن، لكن ليست وفق علاقة سببية بين ثلاث لحظات في بناء المعنى، لذلك أميز بين «التأثيرات المقصودة» عن طريق حاجة الإنتاج، و«التأثيرات الممكنة» لحصيلة العرض الاستدلالي، و«التأثيرات المنتجة» (التي تنتج واقعياً) عند المتلقي.

هذا الأمر يدفعنا إلى الحيطة عندما يتعلق الأمر بملاحظة التأثير الذي قد تحدثه وسائل الإعلام على الرأي العام. يكفي أن نعود إلى بعض الأحداث التي وقعت حديثاً نسبياً. في الولايات المتحدة الأمريكية، قامت وسائل الإعلام بتغطية فضيحة كلينتون ولوينسكي بشكل واسع، وبطريقة موجّهة، حيث لعبت، وبالتحديد على حكايات تمس الأخلاق الطاهرة (الجنس، الخيانة)، والأخلاق الاجتماعية (الكذب)، إذن كنا نعتقد أن الأمر سيخلف صدى في خيال الأمريكيين، لكن مع ذلك، أظهرت الإحصاءات واستطلاعات الرأي والتحقيقات أن الأمريكيين في غالبيتهم لم يهتموا بمحاولة الإعلام الأمريكي الإطاحة بكلينتون، بل أدانوا معالجة وسائل الإعلام لهذه القضية. لقد تبين لنا أن الإعلام والأمريكيين، اتفقوا جميعاً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، لدعم قرار جورج بوش

القاضي بشن حرب على العراق (على الرغم من أن حركات احتجاج عدة نظمت ضد الحرب، ولم تخلف تأثيراً يذكر)، لأنه ربما في هذا الظرف، كان خيال الانتقام والحاجة إلى تبني صورة منقذ الهوية الأمريكية، أقوى كي تخفي كل انشقاق ممكن لصالح المرشح جان كيري، وهو ما أدى إلى فوز جورج بوش في الانتخابات. والأمر نفسه حدث في أسبانيا يوم الحادي عشر من آذار 2004، حيث على الرغم من أن وسائل الإعلام ربطت وبشكل كبير اعتداءات مدريد بمنظمة «إيتا»، تم اتهام الحكومة الإسبانية. أما في فرنسا، فيكفي العودة إلى الخلل الذي يكشف عليه كل من الخبر والرأي العام ونتائج الانتخابات الرئاسية العام 2002، والاستفتاء على الدستور الأوروبي.

لنعيد السؤال الأولي بالنظر إلى هذا التقسيم الثلاثي (الآثار المقصودة، الآثار الممكنة، والآثار المنتِجة): هل وسائل الإعلام الفرنسية لها النية في ترجيح كفة الفلسطينيين؟ أو لنطرح السؤال بطريقة أخرى، هل نتائج طريقة عرض الصراع إعلامياً موجّهة؟ هل يمكن القول إن الرأي العام الفرنسي متأثر؟ في الرد على السؤال الأول يمكن أن نجيب بأن هذا ممكن. هناك خطاب ما معاد للسامية، يصدر عن فاعلين مختلفين، وترافقه تصريحات غير مناسبة تكون نتيجة لاستغلال صغير للنفوذ،[6] وهو ما تتناوله وسائل الإعلام وتنشره داخل أوساط المجتمع الفرنسي. أيضا هناك السؤال الآتي: هل يمكن قياس التأثير الحقيق لهذا الانتشار؟ لا يمكن أن ننفي أن وسائل الإعلام تخلف صدى واسعاً، لكن هل يشارك الإعلام عن قصد في مشروع ما متخذاً موقفاً معيناً؟ من الصعوبة أن نقول ذلك، لأن الآلة الإعلامية تحدد دوماً نية فاعليها، ومن الصعب أن نعرف منطلق النية الواعية، وغير الواعية واللاواعية لهؤلاء الفاعلين. هناك كتاب رائع بعنوان: **الصحافة السيئة، سوسيولوجيا مقارنة للعمل الصحافي وانتقاداته**، للسوسيولوجي سيريل لوميو. ويبين أن الصحافيين غير واعين بمجموع ممارساتهم المهنية. إذن، هل الضجة والصمت والتناقضات والتفاوتات التي يشير إليها دانيال دايان»، دليل على هذه القصدية؟ ربما يكون ذلك، لكن من وجهة نظري، لدي نزوع على الأقل في البداية، لتسمية هذا الواقع بـ «أيديولوجيا التهويل»، في حين أن الكلام عن هذا النوع من الأيديولوجيات صحيح، ولا يبرئ وسائل الإعلام ،لأنه علينا أولاً أن نتساءل حول من هو المواطن الذي تقوم وسائل الإعلام بصنعه، ويعني ذلك، هل يوجه الإعلام خطابه إلى مواطن بعينه، أو إلى مجموعة عاطفية ومتعطشة للإثارة؟

ونضيف أن عرض وسائل الإعلام التهويلي له انعكاسات مضادة، ويمكن أن يحتفظ به لأجل أغراض معاكسة، حسب أنواع الجمهور الذي يستهلك مواده. فكل واحد من الجمهور يحس ويؤول حسب حساسيته الخاصة وموقعه الأيديولوجي. هذا نعرفه من خلال عدد من الدراسات التجريبية، فنفس المشهد العاطفي يتم تأويله بشكل مختلف بين الأفراد، حسب نظام الاعتقاد الذي ينتمي إليه الفرد، وهذا ما يؤدي بنا إلى طرح السؤال الثاني والخاص بتأثير الجمهور. وللرد على هذا التساؤل، يجب علينا أن نكون حذرين أكثر، لأن دور تحليل طريقة عرض وسائل الإعلام، هو التأكد –مثل ما قلنا– من الآثار الممكنة. ليس لدينا ضمانة تقول إن هذه الآثار ستتحول إلى آثار منتجة. التأويل سواء مر عبر نظام العقل أو الانفعال، هو دائماً رهين بآفاق خيال من يؤول، خيال هوياتي، حسب المرجع أو مجموعة الانتماء التي نود الانضمام إليها. إن الخيال مرتبط بالتاريخ الجماعي الذي نتلقاه بشكل مشترك، وله علاقة أيضاً بتاريخ كل واحد منا، وهذا ما يؤدي إلى أن الصورة نفسها والتعليق وطريقة العرض، كما يمكن أن يؤول بطرق مختلفة جداً، حسب الأفراد أو أنواع الجمهور. فمثلاً، إذا كان موت محمد الصغير (محمد الدرة) قد أنتج النتائج الأليمة نفسها، لأن السبب يكمن في أن موت طفل بريء فيه شيء من الكونية، فهو متعلق بإدراك مجمع عليه، للظلم الاجتماعي والإلهي (هذا هو الفخ الذي يجب علينا أن نفكر فيه، وتحدث عنه دايان، لكن من جهتي، سأعود إلى موضوع التهويل الذي يستحوذ على الإعلام، وهو أكثر من اتخاذ موقف ضد إسرائيل). بالمقابل، مشهد قذف الجنود الإسرائيليين من النوافذ – والباحث دايان على صواب عندما يشير إلى أن لا أحد يعرف اسم ولا هوية من يمكنه أن يخفف من المأساة – يتلقاه البعض مع ذلك، وكأنه الدليل والحكم الجاهز على التعصب العربي الإسلامي (عرض الأيادي وهي مرفوعة وملطخة بالدماء كرمز لنصر قرباني). وقس على ذلك مشاهد الفرحة المعبر عنها من طرف العرب، بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، إضافة إلى صور تعرض عملية دفن فلسطيني مع أعلام وصور جماعات، وجثث مرفوعة على الرؤوس، وعواطف تنبعث من وجوه حزينة، والتي تحدث عنها دايان، ليست كلها بالضرورة تخدم الفلسطينيين. وأشهد أنني قدمت حصة دراسية شاهد خلالها طلبة من أفريقيا الشمالية هذه الصور، وعبروا عن شجبهم لهذا التحريض، والصراخ، واعتبروه أمراً متعصباً. فهناك فرق بين حشد وحشد، وهذه الصور المذكورة نظر إليها من طرف الطلبة بنظرة سلبية.

وللحكم على التأثير الواقعي للإعلام على أنواع من الجمهور –ودايان يعرف ذلك جيداً، وهو الذي اقترح مفهوم «جمهور الشتات»– يجب علينا الإطلاع على دراسات علمية مختلفة. وسيراً على طريق ما اقترحه دايان في نهاية حواره مع الباحثين بياتريس فلوري وجاك فالتر، أضيف أن تلقي جمهور متنوع للصور الإعلامية لا يمكن مقاربته بمنهجية واحدة، بل من المناسب الالتجاء إلى أنواع عدة من التلقي، كدراسات تتطرق لردود الأفعال التلقائية لهذه الجماهير، ونجمعها مثلاً من خلال تصريحات المنظمات الأهلية، والمجموعات المناضلة، والأحزاب السياسية . . . الخ. وهذه الدراسة تتأسس على تحقيقات ميدانية، واستمارات وحوارات عميقة، كما تنبني على إجراءات تجريبية تسمح بالتوصل إلى «خطاطات التذكر»، التي نلتجئ إليها عندما نريد أن نؤول. وعوضاً عن مواجهة هذه الدراسات المختلفة، يستحسن أن نمفصلها، كي نستخلص ما أمكن الدرس الأحسن.

في الأخلاقيات الصحافية

الأسئلة المطروحة سابقاً، تنفتح بطبيعة الحال على سؤال أخلاق الصحافة، وهو سؤال أساسي يطرحه دايان، ويجب على الباحث أن يحاول الإجابة عنه بحذر كذلك، حتى لا يحسب على أولئك الذين

يحتقرون الإعلام ويتهمونه. الباحث يقول في مقاله: بما أن تعدد التدخلات التعبيرية ومستويات التعبير موجودة، فإن نية الفاعلين تتحد مع نيات فاعلين آخرين، بمعطيات غير قابلة للسيطرة عليها وبميكانيزمات بنيوية. ولهذا السبب، يظهر لي أن البحث عن بناء جديد للنوايا يعد دون فائدة –أو أسوأ من ذلك– عندما يتم الاعتقاد في النوايا المصرح بها». هذه نقطة أخرى أواجهها، دون أن أكون مدافعاً بصرامة عن عدم نفعية معرفة نيات الفاعلين، لأن هذه النيات تساهم في بناء التمثلات الاجتماعية التي بدورها لها تأثير على طريقة ممارسة مهنة الصحافة. لكن أجد غالباً في مجال التواصل الحاصل في المجال العمومي، أنه ليس الأفراد من هم يتواصلون فيما بينهم، لكن –وكما قلت سابقا– التواصل يتم بين حاجات تتضمنها آلة إعلامية وتحددها جزئياً. وبالنظر إلى ذلك، فهذه الآلة تهيأ من جهة حاجة إعلامية لإنتاج الخبر، ومن جهة أخرى حاجة الجمهور/ المواطن الباحث عن الاستعلام، والاثنان معاً يجمعهما جهاز يحدد لكل منهما أمكنة وأدواراً. إضافة إلى ذلك، فالحاجة الإعلامية والحاجة العمومية هما بدورهما مترابطتان، ولا يمكن فصلهما، الشيء الذي يصعب مهمة المحلل عندما يبحث عن تحديد المسؤوليات. لقد سبق ووصفت في كتابي حول الخطاب الإعلامي (2005) هذه الآلة وجهازها وهوامش عملها الإستراتيجي التي تنص عليها الحاجة الإعلامية. ولن أعيدها مرة أخرى، لكن أقول، إن كل اتهامات دايان حول باثولوجيا المقروئية (المقروئية واللامقروئية الخداعة) يجب نقلها إلى الآلة الإعلامية وهدفها الإغرائي، الذي يستحوذ عليها بطريقة تؤدي بها إلى عرض مشاهد مهولة حول أحداث الساعة، وهو تحول يؤدي في نهاية المطاف إلى عدم معرفة ما إذا كانت الآلة الإعلامية تتخذ موقفاً ما حول موضوع يهم الحياة السياسية أو يخص خبراً عاطفياً بسيطاً.

ونتيجة لذلك، نرى أن ظاهرة الخبر الإعلامي الناتج عن عمل آلة إعلامية بمختلف فاعليها ودواليبها، تؤدي إلى نتيجتين: توزيع المسؤوليات، وفجوة كبيرة بين الانعكاسات المقصودة للحاجة الإنتاجية، والانعكاسات الممكنة لطريقة عرض وسائل الإعلام، والانعكاسات المنتجة لدى المتلقي. وعدم وضوح المسؤوليات، يطرح المشكل الصعب، المتمثل في عدم التمكن من معاينة مصدر إنتاج الإخفاقات والتناقضات وتحولات أخرى. هنا نطرح السؤال: هل الصحافي هو الذي يحرر نصه الإخباري؟ يمكن أن يجيبنا دائماً بأن نصه تم تعديله في غرفة التحرير، أو تم تحويله إبان عملية العرض أو أثناء إذاعته على الأمواج. هل رئاسة التحرير هي المسؤولة؟ يمكن لها أن تجيب بأنها، وإن اختارت النص الإخباري، فإنها لم تقم بتحريره. هل إدارة الصحيفة أو القناة التلفزيونية أو المحطة الإذاعية هي المسؤولة؟ يمكن دوما أن نرمي الكرة في ملعب الفاعلين الآخرين.

في سياق تصور ما، تصبح الموضوعية مستحيلة. ومن أجل أن تحصل الموضوعية، يجب أن نتوفر على أدوات تحليل معترف بها، واستعملت من طرف آخرين. وفي هذا السياق، يتوفر الصحافي على بعض الأدوات، فهو منذ البداية يحضر في واقع الأحداث، (مراسلون ومبعوثون لوسائل الإعلام في واقع الأحداث) يجمع قصاصات وكالات الأنباء والشهادات، وعدد من المهام التي تفرض عليه التحري والتقطيع، والتوثيق. لكن للأسف، هنا البحث عن السبق الصحافي، والمنافسة بين وسائل الإعلام لا يمنحان الوقت لهذا النوع من التحري، وهو الأمر الذي يؤدي إلى الانحرافات التي نعلمها.[7] ونضيف إلى أن الموضوعية في عرض الخبر تفرض بعض المواقف، كتلك التي «تستعمل فيها كلمات تحمل إلحاحاً شديداً»؛ أي في طريقة تقديم الخبر والتعبير عن موقف «الحياد «أثناء التعاليق التي يقدمها الإعلام، والاستغناء عن موقف «الخضوع» في عرض التحليلات عن طريق الاستعانة بمختصين. بكل تأكيد، هذا يعد متناقضاً مع الهدف الإغرائي للإعلام، الذي قلنا عنه، إنه هو الذي يضمن صمود الإعلام وسط منافسة السوق الإعلامية. ليس هناك إذن موضوعية ممكنة، بل هناك فقط مجموع موضوعيات يمكن للمواطن أن يختار واحدة من بينها. مع الأسف، المواطن لم يكن له أبداً إمكانية التوصل إلى كلية الموضوعيات، وعلينا البحث عن الخطأ.

من الناحية المثالية، يجب على كل واحد من الفاعلين في الآلة الإعلامية أن يكون له وعي شمولي بنياته، واختياراته التي يقوم بها، وكذلك النتائج التي من المحتمل أن تنتج طرق نقل الأخبار والتعليق على الأحداث. هؤلاء الفاعلون هم أنفسهم يعيشون الخيال الاجتماعي نفسه، وفي غياب أي مجهود نقدي، يصعب عليهم تفادي الأيديولوجيات التي تحدد عملهم. ولذلك سيكون من المبالغ فيه أن نخص الصحافيين الفرنسيين وحدهم بنية نزع شرعية إسرائيل في معالجتهم للصراع الإسرائيلي الفلسطيني الذي يشغلنا جميعاً، وساذج من يفكر أن الصحافيين لن يتأثروا بالخطاب المتداول في المجتمع الفرنسي، وهم (وهنا المفارقة) المبشرون لما يروج في هذا المجتمع. لكن من يريد ذلك، لا يتوفر على الحس النقدي. ولهذا السبب، فالقدرة على ممارسة النقد الذاتي، يجب أن يرافقها تكوين مناسب للفاعلين الإعلاميين، وهو الشيء الغائب دائماً.

موقف الباحث: محلل محايد أم فاضح؟

السؤال الأخير المتبقي الذي طرحه دانيال دايان هو كالآتي: ما هو الموقف الذي يجب على الباحث أن يتخذه عندما يحلل الوقائع الاجتماعية؟ هذا سؤال يرتبط بسؤالين آخرين يعتبرهما دايان أساسيين: هل يمكن للتحليل العلمي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية أن يحقق موضوعية شمولية؟ ما هو نوع الحقيقة التي تنتجها التحاليل العلمية؟

حول موضوع الموضوعية قدمنا التفسير التالي: ليس هناك موضوعية مطلقة، لكن فقط نزوع تحليل علمي ما نحو الموضوعية، باستعمال أدوات قابلة للتكذيب، وقام آخرون بالتحقق منها. الباحث نفسه يعمل في إطار زمني، ويتوفر على أدوات مبنية (ويتم النقاش حولها بشكل دائم) وموحدة بالنسبة للمجتمع العلمي في سياق تخصص معين، وهذا ما يضمن علميتها، ويسمح في آن واحد بإعداد أنظمة معرفية، يمكن الاستناد إليها عن طريق مساءلتها. نلاحظ الفرق بين تعليق الصحافي المتخصص أو خبير وتحليل الباحث. الأول يحمل

خطابا تأكيدياً، في الوقت الذي يحمل فيه الثاني (إذا لم يكن وجهاً معروفاً على المستوى الإعلامي) خطاباً افتراضياً وتأويلات ممكنة.

حقيقة أن الأمر أعقد من ذلك. ونعلم أن الحقيقة تنبثق من هذه المفارقة التي لا وجود لها إلا من خلال هذه الحمولة الكونية، وهي تصطدم بواقع الأحداث التي تحطمها وتفجرها حتى تصير أجزاء من الحقيقة، وهذا ما أثاره الفيلسوف الألماني فريديريش نيتشه عندما قال: «لا توجد حقيقة جوهرية، ما دام أن الاعتقاد في هذه الحقيقة، هو بالتحديد اعتقاد مرهون بنظام التفكير الذي يتنوع حسب اللحظات التاريخية». هذا لا يمنع من أن هناك مقاومة ثابتة، تتسع خلال فترات زمنية عدة، بين حقيقة مثالية متخيلة من طرف البشر وحقائق نسبية، بل غياب لحقيقة يفرضها رعب الأحداث. لحسن الحظ، الإنسان لا يستسلم بسهولة، وحتى أمام حالات الرعب، لا يتوقف عن إعادة بناء حقائق متعالية. وإذا وجدت الأحداث معزولة وحدها، سيكون الإنسان أقرب إلى الهوية الحيوانية. أما إذا كان هناك نفي لهذه الأحداث، فلن تكون سوى مجتمعات فوضوية، وكل واحد منها يدافع عن طوباويته الخاصة. إذن، لنقبل الاثنين معاً: وجود أحداث وحقائق بالجمع، وهنا تطرح مشكلة الحقيقة كالتزام: التزام الصحافيين في نشاطاتهم الإخبارية، والباحثين في نشاطاتهم التحليلية. والالتزام هو فعل مفروض باسم بعض القيم، ويعني ذلك أن خطاباً أخلاقياً هو الذي يحركه. هذا السؤال ليس جديداً، لكن يأخذ منحى مغايراً في حياتنا المعاصرة التي يُطالب فيها بحق الفرد في أن يكون سيداً على نفسه. لنعيد طرح الفكرة القائلة بعدم الخلط بين نية الفاعلين وآثار الآلة الإعلامية، هذا أيضاً يشكل حقيقة بالنسبة للصحافي والباحث، وكما قلنا سابقاً، هناك آلة لإنتاج الخبر، وهناك آلة أخرى لإنتاج البحث العلمي. وفي ما يتعلق بمجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، تشكل الدراسات المختلفة في حد ذاتها نقداً للمجتمع (أحياناً، يمكن لنا القول إنها تمثل اتهاماً)، في نطاق تكون فيه نتائج البحث، وتأويلاته تكشف ما لا يرى بالملاحظة التجريبية البسيطة. كل دراسة في هذه المجالات هي عبارة عن تساؤل، بل هي اتهام لطريقة اشتغال النظام الاجتماعي. وفي نظري أيضاً، ليس للباحث حكم بعدي حول هذا الاشتغال الاجتماعي، إنه ينتقي مواضيع البحث حسب كفاءاته، كما أن رغبته في إدراك ظاهرة معينة يعد مشروعاً وضرورياً، لأنه يجب أن تحضر الرغبة لديه في البحث. لكن يجب عليه ألا يتخذ موقف المتهم، لأنه سيكون مسبقاً، قد التزم بوجهة نظر ستوجه أبحاثه بشكل قبلي. أتذكر النقاشات التي دارت خلال دراستنا للصراع الصربي البوسني مع مؤرخ من البلقان، وكانت الآراء التي قدمها أمامنا تفيد بأن الإعلام الفرنسي، كان مقرباً من الصرب (في الوقت التي لم ينطلق فيه بعد بحثنا حول هذا الصراع). وإذا ما كنا قد قررنا اتّباع آراء هذا الباحث القبلية، فإن تحليلنا سيكون مزيفاً.

خلاصة

أعتقد -وسأحاول وضع ذلك عملياً- أنه من الممكن أن نميز وضعية الباحث مع كل شروط الصدق الضرورية التي ترتبط بها، ووضعيتنا كمواطنين أو أفراد يمكن أن يسمح لهم بالحكم واتخاذ موقف؛ سواء تعلق الأمر بالصراع في يوغوسلافيا سابقاً أم الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، أم الجدل حول العلمانية، أم قانون ارتداء الحجاب، أم الجدل حول الاستفتاء على الدستور الأوروبي، يبدو لي أن هذا التمييز ضروري العمل به. ومن هنا يأتي السؤال الأساسي: هل يجب أن أكون فرنسياً حتى أحلل بشكل أفضل المجتمع الفرنسي، وعربياً في حال دراسة الظاهرة الإسلامية، أو يهودياً عند مقاربة الصهيونية؟

أما فيما يخص مشكلة الخبر الذي يتطرق للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، فالسؤال يظل كالآتي: ما هي وجهة النظر التي تضمن بشكل أكبر تحقيق الموضوعية، هل هي وجهة نظر العربي أم اليهودي أم وجهة نظر خارجية؟ من ينفي أن كلاً من هذين الرأيين ضروري لفهم أفضل للصراع، وأن المجابهة بينهما هي التي تنبثق عنها الحقائق؟ المعارف في مجال تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية لا تُقصى دائماً، بل هي دوماً، تتراكم، وتتكامل وتتمفصل، ومن هنا يأتي تعدد وجهات النظر. لكن أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار، وبحس نقدي وبوضوح، هو ما يميز في نظري أخلاقيات الباحث».

محمد نبيل
صحافي وباحث مقيم في برلين

الهوامش

* Quelle vérité pour les medias? Quelle vérité pour le chercheur? Question de communication, 2006, 9, 181-194, Presse Universitaire de Nancy, France.

[1] باحث فرنسي مختص في تحليل الخطاب في الوسائل الإعلامية، ويدير مركز تحليل الخطاب في جامعة في باريس. كما أصدر العديد من الكتب من بينها: **خطاب الأخبار الإعلامي** (1977)، **الخطاب المصادر** (1977)، **التلفزيون والحرب** (2001)، **قاموس تحليل الخطاب** (2002)، **وسائل إعلام الأنباء، استحالة شفافية الخطاب** (2004)، (المترجم).

[2] باحث ومدير المركز الوطني للأبحاث العلمية في باريس، أستاذ سوسيولوجيا الإعلام في جامعة جنيف، درس الأنثروبولوجيا، والسيميولوجيا والسينما وعلم الجمال، (المترجم).

[3] Dayan . D (2005) «Pour une critique des medias», Question de communication, 8 pp 195-222.

[4] مفهوم روح الانتماء إلى التجمعات الدينية والإثنية ظهر في الولايات المتحدة سنوات الثمانينيات، ويعني أن الفرد لا يوجد في منأى عن الثقافية والإثنية

والدينية والاجتماعية، لكن في فرنسا يحمل هذا المفهوم معنى سلبياً (communautarisme)، ويصف كل المطالب الثقافية والسياسية لتلك التجمعات. أما في لغات أخرى كاللغة الألمانية مثلاً، فالمفهوم لا يحمل هذا البعد السلبي، (المترجم).

[5] لوك بولتانسكي، عالم اجتماع تتلمذ على يد السوسيولوجي بيير بورديو، وهو حالياً مدير الدراسات في معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية في باريس، آخر إصداراته **في النقد** الصادر العام 2009 (المترجم).

[6] هنا يتعلق الأمر بالفنان الفرنسي الساخر ديودوني المثير للجدل في فرنسا، الذي سبق وأدين مرات عدة بسبب تصريحاته حول المحرقة واليهود، كما اتهم بمعاداة السامية مرات عدة، ومثل أمام القضاء بهذه التهمة، بل عبر القصر الرئاسي الفرنسي عن منعه من لوائح الترشح للانتخابات الأوروبية، (المترجم).

[7] يحيلنا الباحث على أحداث «تموسورا» المعروفة، التي وقعت في رومانيا في مدينة تحمل الاسم نفسه، حين نقلت وسائل الإعلام الغربية مقتل 1104 وجرح 3352 شخصاً في أحداث عرفتها رومانيا العام 1989 أيام حكم الرئيس السابق نيكولاي تشاوسيسكو، لكن في واقع الأمر لم يتجاوز عدد الضحايا 93 قتيلاً، (المترجم).

المراجع

> Dayan . D (2005) «Pour une critique des medias», question de communication, 8 pp 195222-.

> Charaudeau P. Lochard, G Soulages J-CI Fernandez, M Croll .A (2001) «la télévision et la guerre, Déformation ou construction de la réalité» Bruxelles, De Boeck / Ina.

> Lemieux .C (2000) «Mauvaise presse. Une sociologie compréhensive du travail journalistique et de ses critiques» – Paris, Métaillé.

> Mscope (1994) 8 «la publicité masques et miroirs», Versailles CRDP sep.

> Nietzche .Fr (1878) «Humain trop humain un livre pour les esprits libres» , trad. de l'allemand par R. Rovini, Paris, Gallimard 1981.

أطفال روضة مدرسة الفرندز خلال أحد الأنشطة.